الحجاج بن يوسف الثقفى

طاغية بنى أمية

تظل الشعوب الخاضعة للطغاة تحلم بيوم الخلاص وتنتظر الفجر ، لأنها تؤمن بأن الظلام لا يدوم وأن الظلم مهما طال فهو قصير الأمد فى حياة الأمم والدول والمجتمعات .

والحجاج بن يوسف الثقفى شخصية من لون جديد لم يكن على عرش دولة ما ، ولكنه كان أقوى من الجالس على العرش ، وأطغى من المتحكم فى السلطة وأطغى من صاحب الصولجان ، إنه الحجاج بن يوسف الثقفى سيف بنى أمية على أعدائهم والذى قال عنه الحسن البصرى – شيخ الإسلام الذى بلغ فى العلم والتقوى حدًّا جعله أشبه التابعين بالأنبياء – قال عن الحجاج :

«يا أخبث الأخبثين وأفسق الفاسقين ، أما أهل السماء فمقتوك وأما أهل الأرض فغروك ، أبى الله تعالى للميثاق الذى أخذه على أهل العلم ليبينه للناس ولا يكتمونه » .

ومن النادر أن نقرأ كتابًا فى التاريخ الإسلامى إلا وجدنا للحجاج فيه ذكرًا كثيرًا أو قليلاً ، هذا الرجل خرج من سواد الأغمار إلى

ضوء القيادة والرياسة والحكم والشهرة وأصبح بفضل ملكاته وحدها من سادات عصره وأصحاب القول فى شئون الجماعة الإسلامية على أيامه .

وكعادة معظم الطغاة ، فإن أفعالهم وأعمالهم وانفعالاتهم وما يورثه ذلك لهم من الأمراض فإنه يموتون فى سن مبكرة ، هكذا مات نابليون وهكذا مات أتاتورك ، وهكذا مات روبسبير ، وهكذا مات نيرون ، نعم لقد مات الحجاج وهو لم يتجاوز الثالثة والخمسين .

عاش أعظم أحداث الدولة الأموية ، ووقع فى أخطاء اشتد نقد أهل عصره لها ولكنه لم يعبأ بشىء لا بأعراض الناس ،ولا بالهزائم والنكسات التى ألمت به بل سار فى طريقه ، الغرور يعميه والثقة المفرطة تجعله غير هياب لكل ما أحاط به من نوائب الدهر وقساوة الزمن مما كان سببًا فى غضب الناس عليه ووضعه فى عداد الجبابرة الطغاة .

كان الحجاج ذكيًّا فطنًا ، ووضع نفسه فى خدمة الدولة الأموية مؤمنًا بأن خلافة بنى أمية خلافة شرعية ، ورغم أنه كان يرى نقائض بنى أمية وأخطاءهم إلا أنه كان يراهم أفضل وأقدر من العلويين من منطلق إن الخلافة مسئولية وليست وراثة لأن الكفاية وحدها تعطى الحق .

وكان جمهور المسلمين غير راض على خلافة بنى أمية إذ أن معظمهم كان يرى أن بنى أمية اغتصبوا الخلافة ، وأنهم يعتمدون

على القوة العسكرية لتثبيت حقوقهم وفاتهم أن الملك لا يقوم على القوة إلى ما لا نهاية وأن القوة لا يمكن أن تدوم إلى الأبد وأن العنف لا يحل المشاكل الداخلية ، لأن الطغيان يزيدها تعقيدًا ولا سبيل لحل المشاكل الداخلية لأن الطغيان يزيدها تعقيدًا ، ولا سبيل لحل المشاكل إلا بالتعاون بين الحاكم والمحكوم من خلال جسور الثقة والعدل .

وأسوة بكل الطغاة ، تولى الحجاج الحكم دون سابق تجربة أو علم فانصبت على رأسه لعنات الشعب ، ولم يعرف الحجاج غير لغة السوط ولسان القوة وأسلوب العنف للتحايل على الناس ، وللتعامل مع المحكومين ولم يفكر مطلقًا فى استخدام شىء من التفكير وحوار العقل وقد عاش الحجاج عصرى عبد الملك بن مروان ، وولده الوليد بن عبد الملك ونجح الاثنان فى اتخاذه مخلب قط لينعما هما بالسلطان .

من هو الحجاج :

من أبرز رجالات ثقيف الذين لعبوا دورًا بارزًا فى التاريخ الإسلامى بوجه عام ، وفى تاريخ بنى أمية بوجه خاص ، وقد ظل طوال ربع القرن يحتل مكانة الرجل الثانى بعد الخليفة فى الدولة الأموية ، وقد ولد الحجاج عام ٦٦١م وتوفى عام ٧١٤م (أى ٤١ –

٩٥هـ) ، ولاشك أن شخصية الحجاج قد تأثرت إلى حد ما بالعصر الذى عاش فيه ، ذلك العصر الذى شهد الكثير من عوامل الفرقة والتمزق والخلاف والانقسام والعصبية القبلية موجودة ، تلك العصبية التى كانت إحدى الصفات الرئيسية لكيان العرب السياسى قبل الإسلام لم تختف فى صدر الإسلام وإن كانت قد خفت حدتها مؤقتا لتعود قوية مؤثرة خلال العصر الأموى ولكن يجدر بنا قبل الكلام عن الصفات الشخصية للحجاج والعوامل التى خلقت منه طاغية أن نذكر المسرح السياسى الذى لعب دوره عليه ، وأمكننا أن نؤكد أن الحجاج كان نبت ظروف قاسية ألمت بالدولة التى عاش للدفاع عنها وهى الدولة الأموية .

ومن الناحية السياسية كانت الفتنة التى حدثت بين المسلمين فى نهاية عهد عثمان ، والتى أدت إلى اغتياله ثم اغتيال على بن أبى طالب ، ثم الفتن فى عهد معاوية وولده يزيد ، كل ذلك لم يعط الاستقرار السياسى للدولة العربية الجديدة وقد شعر عثمان بن عفان بالخطر الذى سيلحق الأمة الإسلامية قبل مصرعه فقال للزعماء الثائرين عليه – كما جاء فى تاريخ الطبرى (جـ ٤) ، والكامل فى التاريخ (جـ ٣) :

« فوالله لئن قتلتمونى لا تحابون بعدى ولا تصلون جميعًا بعدى أبدًا ولا تقاتلون بعدى عدوًّا جميعًا أبدًا » وقال أحد الصحابة حين

بلغه قتل عثمان – كما جاء فى كتاب طه حسين الفتنة الكبرى (جـ ٢) .

« لقد كنتم تحلبونها لبنًا فلن تحلبوها منذ اليوم إلا دمًا » .

ومن هنا أصبح متعذر المحافظة على وحدة المسلمين إلا بالقوة ولقد كانت الظروف التى سبقت الفتنة الكبرى فى عهد عثمان وما أعقبها ، هى المناخ الذى هيأ ظهور معظم الفرق الإسلامية من شيعة وخوارج وغيرهم ، ولكن رغم الظروف السياسية فقد كان هناك عامان فى تاريخ المسلمين خلال عصر الدولة الأموية العام الأول هو سنة ٤١ (٦٦١م) ، والذى أطلق عليه عام الجماعة الأول حيث اجتمعت كلمة المسلمين على خلافة معاوية ، والعام الثانى هو عام ٧٣هـ (٦٩٢م) حيث أطلق وهو العام الذى أعاد فيه عبد الملك بن مروان الوحدة عليه عام الجماعة الثانى إلى الدولة الإسلامية .

بيعة الأمر الواقع :

ولكن من الجدير بالذكر أنه إذا استثنينا أهل الشام فإن جمهور المسلمين الآخرين لم يعطوا معاوية البيعة عن رضى واقتناع ، وإنما قبلوا ذلك كأمر واقع لا مفر منه لوضع حد للحرب والفرقة الانقسام ، وأحدا لم ينس أبدًا للأمويين أنهم كانوا أخطر أعداء النبى ، وأنهم لم

يعتنقوا الإسلام إلا فى الساعة الأخيرة مكرهين ولعل ذلك جعل معظم المسلمين يعتقدون أن موقف الأمويين السابق من الإسلام لايؤهلهم لقيادة الأمة الإسلامية ويبدو أن أسباب اتساع الهوة بين الأمويين ومعارضيهم ظلت قائمة طوال الحكم الأموى حتى قيل : « ما تلاقى اثنان إلا وتحدثا فى الأمويين وما اجتمع ثلاثة إلا وشرعوا فى العمل ضدهم » .

والآن نعود إلى شخصية الحجاج ونسبه :

ينسب إلى ثقيف ، وهناك أسباب دفعت النسابة إلى تشويه نسب ثقيف فى مقدمتها موقف ثقيف من النبى ومن الدعوة الإسلامية قبل دخولها الإسلام وتحالفها التقليدى مع بنى أمية ، وكان الحجاج بن يوسف شديد التعصب لهذا النسب يدافع عنه ويغضب إذا نسب إلى غيره وقد أمد الخلاف حول نسب ثقيف أعداء الحجاج بمادة غنية خصبة فى هجائه والتعريض به ، وكان عبد الله بن الزبير خلال فترة حصار الحجاج له يشتم ثقيفًا فى خطبة الجمعة ويصفهم بأنهم :

« قصار الخدود ، لئام الجدود ، سود الجلود بقية ثمود » وكان الحجاج فى معرض رده على هذه الادعاءات يقول « أنا بقية ثمود وهل بقى مع صالح إلا المؤمنون » . ومكانة ثقيف تعززت بشكل ملحوظ فى ظل الدولة الأموية التى اعتمدت فى العهدين السفيانى والمروانى على كثير من رجالات ثقيف فى توطيد حكمها وسلطانها .

أين ولد الحجاج ؟

ولد الحجاج بن يوسف الثقفى فى الطائف – موطن ثقيف – فى قرية بنى صخر على جبل « الهدى » وإن كان أبو المحاسن فى كتابه « النجوم الزاهرة » يذكر أن الحجاج ولد فى مصر بالفسطاط ولكن ثبت خطأ ذلك من خلال كتابات معظم المؤرخين ، وأيضًا اختلف البعض فى سنة ميلاد الحجاج ولكن يكاد يكون مستقرًا عليه أنها سنة ٤١هـ ، فالطبرى وابن الأثير يقولان : إن ميلاده كان عام ٤٢هـ بينما المسعودى وابن عساكر يقولان : إنها سنة ٤٠ ولكن الحجاج نفسه يقول إنه ولد سنة أربعين هـ ولعل هذا الاختلاف يرجع إلى عدم اهتمام المؤرخين المسلمين عامة بمولد الأشخاص قدر اهتمامهم بسنين وفاتهم التى تذكر بعد اشتهار أصحابها واسم الحجاج يعنى قاطع العظم لأنه لغويا كلمة « حججت العظم » تعنى قطعته ، ويعتقد بأن الحجاج لم يعرف صغيرًا بهذا الاسم وإنما كان يسمى « كليبا » وعرف بالحجاج فيما بعد .

وقد ذكر المسعودى فى كتابه مروج الذهب : أن الحجاج ولد مشوهًا لا دبر له فثقب عن دبره ، ومثل هذا القول لا يستبعد خاصة وأنه يحدث فى حالات نادرة لحديثى الولادة ، غير أن المسعودى يمضى فى روايته بعيدًا محاولاً أن يبرر بها سبب ولوع الحجاج بسفك الدماء على حد تعبيره فيقول : إن الحجاج

بعد ولادته أبى أن يقبل ثدى أمه أو غيرها فأعياهم أمره ، وأنه يقال إن الشيطان تصور لهم فى صورة الحارث بن كلدة فقال اذبحوا جديًا أسود وأولغوه فى دمه ، فإذا كان فى اليوم الثانى فافعلوا به كذلك فإذا كان اليوم الثالث فاذبحوا له تيسًا أسود وأولغوه دمه ثم اذبحو له أسود سالخا فأولغوه دمه ، واطلوا به وجهه فإنه يقبل الثدى فى اليوم الرابع « وتنهى الرواية بالقول بأنهم فعلوا به ذلك فكان لا يصبر على سفك الدماء ، ولا شك أنها أسطورة أكثر منها واقعًا تمامًا كالأسطورة التى لحقت مولد جنكيز خان بأنه ولد وفى قبضته بقعة من الدم المتجمد ، وكل طاغية فى التاريخ ساق حوله البعض من هذه الأساطير ، وهكذا ولد الحجاج وأبى رواة الأساطير إلا أن يولغوه فى الدماء حتى الثمالة وقديمًا قيل وما آفة الأخبار إلا رواتها .

ووالد الحجاج هو يوسف بن الحكم بن أبى عقيل بن مسعود بن عامر بن معتب بن عوف بن ثقيف ، ولكن المصادر لا تمدنا إلا بإشارات قليلة عن هذا الوالد ، ولكن جاء على لسان ابن خلدون أن والد الحجاج كان رجلاً تقيًا على جانب من العلم والفضل والشرف قضى معظم حياته يعلم أبناءه القرآن وأصول الدين تقربًا إلى الله وطمعًا فى مثوبته ، وكان للحجاج أخ أكبر هو محمد وأخت هى زينب ، وأم الحجاج هى « الفارعة بنت همام بن مسعود

الثقفى وكان جد الحجاج لأمه عروة ابن مسعود الذى كان أول شهيد مسلم فى الطائف .

ابن المتمنية :

ولعل ذلك كله غريبًا كيف يكون الحجاج بمثل هذه الصورة ومع ذلك يصبح طاغية جبارًا جامد القلب .

نقول إن هناك ظروف شخصية تحول الإنسان من صورة إلى أخرى وهناك ظروف عامة تجعلها أى هذه الشخصية تسلك طريقًا ما ، فالحجاج بتحالفه مع بنى أمية وضع نفسه فى حكم العداء مع آل البيت ، وارتباط مستقبل بنى أمية بالحجاج جعله سيفًا بتارًا لأعدائهم لا تهمه إلا النتائج وليس فى قاموسه أفكار العدل والرحمة ..

كما أن المشتغل بالسياسة يبعد بنفسه عن القيم ويتأتى بسلوكه عن الأخلاق إذا كانت هذه القيم تتعارض مع الأطماع ومع الشهوة للتسلط والحكم ، ومن الجدير بالذكر أن بعض المصادر التاريخية تذكر – مثل رواية المسعودى – أن والدة الحجاج كانت متزوجة قبل والده من الحارث بن خالده طبيب العرب فى حين يذكر ابن عساكر أنها كانت زوجة المغيرة بن شعبة ، ولكنها طلقت بسبب اشتغالها بالسحر ويذكر « البلاذرى » أن والدة الحجاج تمنت وهى عند المغيرة بن شعبة شرب الخمر والالتقاء بنصر بن الحجاج – الذى كان يوصف بأنه أجمل شباب المدينة مما اضطر عمر بن الخطاب

إلى نفيه إلى البصرة بعد أن افتتنت به بعض النساء وسمع الفارعة وهى تنشد فى خدرها .

هـل من سبيل إلى خمر فأشربها
أم من سبيل إلى نصر بن حجاج

وقد استغل خصوم الحجاج بن يوسف هذه الحكاية فكانوا يدعونه بابن المتمنية ... وسواء أكانت هذه الرواية صحيحة أم أنها تلحق بجدة الحجاج فإنها ولا شك كانت عقدة نفسية حكمت سلوكيات الحجاج قبل الكثير من البشر حاول أن يمحوها بأى ثمن ... وتكاد المصادر تجمع على أن الحجاج لم يكن جميل الشكل ، بل كان دميم الصورة وقد ورد فى المصادر أنه كان صغير الجثة حمش الساقين منقوص الجاعرتين ، خفش العينين دقيق الصوت أكتم الحلق ويقال إن رأسه كان كبيرًا مستطيلاً كأنه غرس بين كتفيه ، ولاشك أنه تأثر أيضًا بشكله الخلقى لأن ذلك جعله لقمة سائغة لأعدائه لهجائه ، وكل ذلك أوجد فيه استعدادًا للقسوة والعنف وذلك كنوع من تغطية النقص الذى كان يحسه لعدم حسن هيأته ، الأمر الذى ميز شخصيته بالميل إلى الشدة وقوة البأس والتهجم حتى قيل إن الحجاج كان لا يضحك إلا نادرًا .

أنا ابن جلا :

لما تولى عبد الملك بن مروان الحكم بعد وفاة أبيه بعهد منه كانت حال البلاد الإسلامية فى غاية الفوضى والاضطراب فإن

الحجاز به عبدالله بن الزبير وقد بايعه أهله وبلاد العراق أنقسمت إلى ثلاث فرق ... زبيرية بايعوا ابن الزبير ودخلوا فى طاعته ، شيعة تدعو إلى آل البيت ، وخوارج وهم لا يريدون البيت الأموى أو البيت العلوى ، ويؤمنون أن من يستحق الخلافة هو صاحب الكفاءة ، ولكن بولاية مصعب بن الزبير من قبل أخيه عبد الله بن الزبير أمر العراق عاد العراق كله إلى عبدالله وبقى الأمر بالشام ومصر لعبد الملك بن مروان ، وتشجع عبد الملك وسار بقواته إلى العراق لإخضاعها حتى نجح فى ذلك بعد أن هزم أهل العراق ، وقتل مصعب ولم يبق خارجًا عن سلطان عبد الملك إلا الحجاز فوجه وهو بالكوفة جندًا إلى مكة يقودهم الحجاج بن يوسف الثقفى فى سنة ٧٢هـ ، فلما وصل مكة حصر ابن الزبير بها ورماها بالمجانيق ، ولم يزل الأمر على ذلك حتى اشتدت الحال على أهل مكة من الحصار فتفرقوا عن ابن الزبير وخرجوا بالإمامة إلى الحجاج ، وظل عبدالله يقاتل حتى قتل وأمر الحجاج بصلب جثته وكانت سنة ٧٣ سنة ولم يرحم الحجاج شيخوخته وبقتل ابن الزبير صفا الأمر لعبد الملك بن مروان فى جميع الأمصار الإسلامية واجتمعت عليه الكلمة ولم يلبث فى سنة ٧٥هـ أن عين عبد الملك الحجاج واليا على العراق فسار إلى الكوفة حتى دخل مسجدها فصعد المنبر وهو ملثم بعمامة خز حمراء فاجتمع إليه الناس وهو ساكت قد أطال السكوت ثم كشف اللثام عن وجهه وقال :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفونى

يأهل الكوفة إننى أرى رءوسا قد أينعت وحان قطافها وإنى لصاحبها وكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى « أما بقية الخطبة فإنها لا تختلف فى معناها ولهجتها عما تقدم » ، ولما فرغ الحجاج من خطبته لم يفد أحد ممن كان بالمسجد ولم يظهر أحد استياءه وأمر الحجاج غلامه بأن يقرأ على الناس كتاب عبد الملك فقرأ « بسم الله الرحمن الرحيم .. من عبد الملك أمير المؤمنين إلى من بالكوفة من المسلمين سلام عليكم » غير أن أحدًا من الحاضرين لم يرد السلام فأمر الحجاج غلامه بالكف وأخذ يوبخ الناس ويتهدد ويتوعدهم قائلاً « والله لأؤدبنكم غير هذا الأدب أو لتستقيمن » ثم أمر غلامه فأعاد القراءة فقال الحاضرون « على المؤمنين السلام » .

سياسة الحجاج فى الحكم :

ويتضح لنا أن سياسة الحجاج فى حكم أهل العراق كانت سياسة حزم ممزوجة بالظلم والجبروت ، ولا غرو فقد أخذ الناس بغير هوادة وقتلهم على الريبة والظن ولعل أشهر مواقع الحجاج كانت ضد « ابن الاشعث » الذى شق عصا الطاعة على الخليفة فتعقبه الحجاج حتى قضى عليه فى معركة « دير الجماجم » ورغم حرب ابن الاشعث إلا أن الحجاج احتال عليه حتى قتله ثم أسرف الحجاج فى قتل أسرى « دير الجماجم » بشكل جعلنا نقول إن حبه لسفك

الدماء كان يجرى فى عروقه بلا رحمة إلى درجة أن الخليفة أرسل يقول له « إذا أعطاك الله الظفر على قوم فلا تقتلْ جانحًا أو أسيرا » . عاش الحجاج أكثر من عشرين عامًا فى الطائف قبل أن يظهر على المسرح السياسى وقيل إنه فى حداثة سنه عمل راعيًا للغنم كما عمل فى وقت لاحق فى دباغة الجلود ، وقال البعض إن الحجاج اشتغل بالتعليم مرحلة من حياته أسوة بأبيه يوسف وأخيه محمد .

ويبدأ ظهور الحجاج على المسرح السياسى وقت أن وقف هو وأبوه إلى جانب الأمويين منذ عهد يزيد بن معاوية حيث شاركا سويًا فى موقعة « الحرة » إلى جانب قوات مسلم بن عقبة ضد أهل المدينة وقيل إن الحجاج وأباه فرا فى بداية المعركة على جمل بطىء وقد اعترف الحجاج بهذا الفرار ، ثم يجىء الحجاج هو وأبوه مع حملة مروان بن الحكم على مصر حيث يبقيان حوالى الشهرين فى الفسطاط ثم يشارك الحجاج ووالده فى الحملة البرية التى أرسلها مروان بن الحكم أيضًا إلى الحجاز للقضاء على عبدالله بن الزبير ، وقيل إن هذه المعركة كانت درسًا قاسيًا للحجاج فقد أسر معظم رجال الحملة وفر الحجاج بن يوسف ووالده راكضين لحوالى ثلاثين ميلاً ويطلق على هذه المعركة اسم معركة « الريذة » وهى قرية من قرى المدينة على بعد ثلاثة أيام منها وفيها دفن الصحابى المعروف أبو ذر الغفارى .

وكانت أول ولاية يتولاها الحجاج هى بلدة بتاله ولكنه استهان

بها ولم يدخلها وذلك لتطلعه إلى ولاية أرقى وأوسع ولم تلبث الظروف السياسية الصعبة التى واجهت عبد الملك بن مروان فى بداية خلافته أن ساعدت على إتاحة الفرصة للحجاج للظهور على المسرح السياسى .

تولى الحجاج ولاية الحجاز بين سنتى ٧٢ ، ٧٥هـ ثم تولى العراق بعد سنة ٧٥ ثم أصبحت له الولاية على خراسان فعين المهلب بن أبى الصفره نائبًا عنه فيها وذلك سنة ٨٠هـ وفى سنة ٨٩ عين الحجاج واليا من قبله على « سجستان » .

شهادة الكفر أولا !!

وقد ثار الناس ضد الحجاج وخلعوه لقسوته وبايعوا بدلاً عنه عبد الرحمن ابن الأشعث وانتصر ابن الأشعث فى عدة مواقع ضد الحجاج ولكن الحجاج انتصر فى النهاية وكان انتقامه من عدوه مروعًا .

ولقد عرض عبد الملك بن مروان على أهل العراق عزل الحجاج والاعتراف بالخلافة للبيت الأموى ، ولكن أهل العراق رفضوا ذلك وصمموا على خلع عبد الملك فكان أن أطلق عبد الملك عليهم الحجاج واستمرت معارك دير الجماجم مائة يوم وكانت نهايتها ١٤ جمادى الثانية سنة ٨٣هـ .

وبعد الهزيمة بدأ الناس يبايعون الحجاج من جديد فلا يرضى بمبايعتهم إلاإذا شهدوا على أنفسهم بالكفر فمن شهد نجا ومن أبى قتله .

ولا شك أن فتوحات الحجاج من خلال عماله « ولاته » فيما وراء الهزيمة أدت إلى لصق الكثير من التهم به لأنه كان قاسيًا فى معاملاته مع شعوب تلك البلاد وكان حريصًا على ملء خزائن الدولة بالجزية وفى نفس الوقت لم يترك أية فرصة دون أن يمثل بأعدائه بل كان حرصه على أن يكون سيفة أسبق من لسانه هو شكل الارهاب الذى يجب أن يزرع فى القلوب .

قتل الاسرى :

ولعل أوثق التهم التى لصقت بالحجاج كان حرصه على قتله الأسرى إما للترهيب وإما لأنه كان يرى أن الإنفاق عليهم تبديد لأموال المسلمين وحتى يكونوا عبرة لغيرهم حتى لا يثوروا ضد بنى أمية .

مساوئ الحجاج وطغيانه :

حاول الحجاج أن يوقع بزعيم الشيعة فى عهده محمد بن الحنفية وأن يقبض عليه ويرسله مكبلاً بالحديد من العراق إلى الشام ولكن عبد الملك بن مروان منعه من ذلك وحاول قتل الشاعر الثقفى محمد بن عبد الله الثقفى للغزل بأخته لولا الخليفة ولكن أسوأ ما يلصق بتاريخ الحجاج بعد ضربه الكعبة والمسجد الحرام بالمنجنيق ، واستباحته كميدان قتال وكانت هذه سبة فى جبين الحجاج لأن مكة المكرمة

اعتبرت فى نظر الإسلام والمسلمين مدينة محرمة لا يحل القتال فيها فقد روى عن الرسول فى خطبته يوم الفتح .

« إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض فهى حرام إلى يوم القيامة فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دمًا » .

ولعل أشهر ما قيل فى الحجاج ولازال حتى الآن يردد من أقوال ما قاله الشاعر « عمران بن حطان » الذى عير الحجاج لإحجامه عن منازلة شبيب وزوجته غزاله فقال عن الحجاج : « أسد علىّ وفى الحروب نعامة » وكان الحجاج يؤخر صلاة الجمعة حيث كان يخطب الناس خطبًا طويلة تستغرق الساعات فاتهمه الناس بإماتة الصلاة وحاربوه من أجل إحياء وقتها .

ولقد تعددت زوجات الحجاج - كعادة أهل ثقيف - فكان يحتفظ بأربعة ثم يطلق من يرى إذا ظهرت فى الأفق امرأة جديدة وكان لديه الكثير من الإماء .. ومن أشهر زوجاته هند بنت النعمان بن بشير الأنصارى أحد الصحابة المشهورين الذين نزلوا بالشام وكانت جميلة فاتنة ، ذات أدب وفصاحة ، أنجب منها الحجاج ولدين هما إبان وعبد الملك ولكن قيل إن الحجاج طلقها لأنه على حد بعض الروايات دخل عليها فرآها تنظر فى المرآة وتقول :

فإن ولدت فحلا فلله درهـا
وإن ولدت بغلا فجاء به البغل
ومـا هند إلا مهـرة عربيـة
سـليلة أفـراس تحللها بغـل

ريحانة . . لا كهرمانة !

وتعتبر هند بنت المهلب بن أبي صفرة من أبرز زوجات الحجاج ، وباختصار يمكن القول أن هذا الطاغية تزوج أكثر من عشرة نساء كانت أشهرهن أم كلثوم ابنة عبدالله بن جعفر بن أبي طالب الذى طلقها بأمر الخليفة خوفًا من تحول ولائه للبيت العلوى وكان الحجاج يرى المرأة ريحانه وليست بكهرمانة أى أنها خلقت للتمتع بجمالها ولا ينبغى لها التسلط على زوجها .

عاش الحجاج مواليا لبنى أمية دون أن يقيم وزنًا لسخط الرأى العام وكان يعلم بكره الناس له ، ولا يعبأ بهذه الكراهية ، وكانت الثقة بينه وبين أهل العراق معدومة حتى روى عنه قوله : أهل العراق هم أهل الثقافة والنفاق ومساوئ الأخلاق ثلث مارق وثلث منافق وثلث سارق .

ولقد كان الحجاج فى الواقع - كما يقول بن خلكان - « له فى القتل وسفك الدماء والعقوبات غرائب لم نسمع بمثلها » وهو

بلا شك طاغية بنى أمية وطغيانه غدا أسطورة تعبر عن حقيقة بطشه وظلمه وقسوته ، إلى أن توفاه الله حيث كان الحجاج يشكو من الإرهاق والتعب والإعياء ويعانى من ارتفاع فى الضغط وقرحة فى المعدة ويشكو من الصداع وطنين الأذنين وعسر الهضم وكأن أمراض البشر المستعصية قد وجدت من أجله ، وقيل إنه تعذب كثيرًا حتى طلعت روحه إلى السماء وأن أحدًا لم يترحم عليه وقد دفن بمدينة واسط فى شوال سنة ٩٥هـ وبذا انتهى طاغية من الطغاة أذل الرقاب وتحكم فى العباد ، وحطم الأوتاد وكان جبارًا استحق من السماء أسوأ أنواع العقاب .